

خصائص

الأنوث

كتاب

للمرأة

كي تعرف حقيقتها

وللرجل

كي يفهم سلوكها

محمد سلامة جبر

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

٥
٢١٣

خَصَرُ الْأَنْوَةِ

محمد سلامه هبزو

دارالسنن للامر

للطاعة والنشر والتوزيع والترجمة

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

لِلنَّاشِرِ

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

لصاحبها

عبد القادر محمود البكار

الطبعة الثانية

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣ م وحصلت
على جائزة أفضل ناشر للتراث ففازت
أعوام متتالية ١٩٩٩ م ، ٢٠٠٠ م ،
٢٠٠١ م هي عثر الحائزة تتويجا لمقد
ثالث معنى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موزي لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران

عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشريبي - مدينة نصر

هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتب : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتب : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع

مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

المكتب : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بيروت : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغربية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول إدراك خصائص الأنوثة

تمهيد :

قيام البيت المسلم يتوقف على صلاح الزوجين كليهما ، وإذا نزل أحدهما عن درجة الكمال ، عانى الآخر عاقبة ذلك النقصان ، والذرية من بعد متأثرة بكل ما ترى وتسمع .

وليس كال الرجل ممثلاً لكمال المرأة ، وكذلك المرأة تباين في كمالها كال الرجل ، فما يكمل به أحدهما قد ينقص به الآخر ، إذ لكل منهما خاصة تفرد بها ، وتلك الخاصة هي بعينها فيصّل ما بينهما .

أهمية إدراك طبيعة المرأة :

ولإدراك طبيعة المرأة أهمية عظيمة لها وللرجل على السواء ، أما لها ، فلكي تعرف حقيقتها ، وتدرك خصائصها ، فتضع نفسها موضعها ، ولا تتجاوز بها حدها ، ورحم الله امرأاً عرف قدر نفسه فوضعها موضعها ، فما سقطت المرأة إلا حين جهلت طبيعتها ، وأنكرت خصائصها ، وتمردت على أنوثتها ، حتى نادت بضرورة إلغاء نون النسوة من اللغة ، ولا عجب ، فالجهل يولد أكثر من ذلك وما أكثر ما نرى ونسمع .

وأما أهمية تلك المعرفة للرجل ، فحتى يعلم كيف يَسُوسُها ، وبم يفسر سلوكها ، وما الذي يصلحها وما الذي يفسدها ، فالضارب في أرض مجهولة لديه أولى به أن يتيه في مجاهلها ، ويضل في مفاوزها ، وسأبين إن شاء الله مجمل خصائص المرأة التي كانت بها أنثى ، وستظل هي هي خصائصها ما دامت أنثى ، ولن تتغير

إلا أن تصبح شيئاً آخر غير الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم .

مستند تلك المعرفة :

ومستند تلك المعرفة ، الكتاب والسنة ، وبالدرجة الثانية ما جاء عن بعض أئمتنا الأعلام في حكمهم على المرأة فهمًا منهم لما ورد في الكتاب والسنة . أو تتبعًا لسلوكها واستقراء تصرفاتها واستخلاص النتائج من خلال ذلك .

أما ما جاء في كتب علم النفس الحديث الخاص بالمرأة فقاصر عن الإحاطة بحقيقتها بعيد عن إدراك مجاهلها ، ونحن كمسلمين لا نشك في أن معرفة النفس لا تعرف على وجه الحق والكمال إلا بإعلام الله خالق النفس ، فحيث جاء في الكتاب أو السنة ما يدل على حقيقة معينة فلا يحل لنا إلا الإيمان والتسليم حتى لو

جهلنا السر والحكمة ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
الْأَلْبَابِ ﴾ (١) .

• غير أنه إن جاء علم النفس الحديث بقول بلغ
درجة الحقيقة في القوة والوضوح ، فلا أعتقد أنه
يتعارض مع ما جاء به الشرع من حقائق ، فالشرع
يعطيك الحق خالصاً ومن أقرب طريق ، والعلم
التجريبي بعد ذلك إما أن يثبت أو يعجز عن الإثبات
أو يأتي بقضية مخالفة لما لدينا مما أتانا به ديننا ، وكل
ذلك لا نباليه ، فالحق عندنا ما جاء من عند الحق
وحده ، أو دل عليه الدليل الحق ولم يصطدم بقاعدة
شرعية .

• ولخطورة القضايا التي سأقررها إن شاء الله ،
ولغرابتها وبعدها عن القبول ثانياً ، ولتعارضها مع
الكثير مما نظن أنه من خصائص الأنوثة ، أحب أن
أقرر أنني ما دونت إلا ما أعلم أنه الحق وبالدليل
الحق ، وعلى من يرى غير ما أرى من رجل أو امرأة
أن يلزمني بالدليل وأسأل الله أن يجعلني وإياهم ممن
يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله
وأولئك هم أولو الألباب .

وأذكر نفسي والمسلمين والمسلمات بقوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ
يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ﴾ . (١)

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى
يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١) .

قاعدة ومفتاح :

أخرج أحمد والترمذي وأبو داود عن أبي موسى
الأشعري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ
يقول : « إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من
جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، منهم
الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل
والحزن ، والخبث والطيب » .

قلت :

هذا الحديث هو العمدة في الباب ، ودلالته بعيدة
النتائج ، عميقة الأثر ، ويؤيده في معناه ، ويؤكد
صحة مبناه أحاديث وآيات سأذكرها إن شاء الله .

أما من الآيات فقوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ
عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ ^(١) قال الإمام الدهلوي رحمه الله في
« حجة الله البالغة » : أي طريقته التي جبل عليها

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا
عَنْهُ ﴾ وجه الدلالة من الآية أن الله سبحانه وتعالى
أخبرنا - وإخباره الحق - أن أهل النار بعد معاينتهم
لنار وما قبلها من أهوال الموت وعذاب القبر وأهوال
الحشر ، فإنهم على الرغم من كل ذلك عائدون لعمل ما
نُهِوا عنه وتسبب في دخولهم النار واستحقاقهم
العذاب ، ومثل ذلك لا يتصور إلا من جبل من طينة
خبثية كما أفاد الحديث السابق ، واستلزمت تلك
الطينة الخبيثة طبيعة مثلها وأعمالاً على شاكلتها .

أما من الأحاديث فقد قال الإمام الدهلوي في

(١) الإسراء ٨٤ .

(٢) الأنعام ٢٨ .

« حجة الله البالغة » باب اختلاف الناس في جبلتهم المستوجب لاختلاف أخلاقهم وأعمالهم ومراتب كالمهم :

والأصل فيه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا ، وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه فلا تصدقوا به ، فإنه يصير إلى ما جبل عليه » رواه أحمد .
قلت :

والمقصود بقوله ﷺ « تغير عن خلقه » أي طبعه الذي جبل عليه لا أخلاقه ، فهي قابلة للإصلاح والفساد وإلا لما كان للأمر والنهي فائدة ولا كان لإبليس وجنوده عمل .

أما الفرق بين الأخلاق القابلة للتغيير وبين الطباع غير القابلة ، فهي أن الأخلاق هيئة في النفس ترسخ بالعادة والاستمرار على فعل معين أو ترك له ، بينما الطباع أثر لنوع التربة التي خلق منها الفرد كما جاء في الحديث المذكور « والسهل والحزن ، والخبيث

والطيب « فالسهل الهين اللين ، والحزن الصعب الشديد كالأرض الوعرة ، أما الخبيث والطيب فمعروفان من هما ، ونحن نشاهد في حياتنا العادية ومن خلال تعاملنا مع الناس صدق هذا الحديث الشريف ودقته في التحديد ، فكم من الناس من تجد فيه الخبيث واضحاً جلياً ، وآخر ترى فيه الطيب ينم عنه وجهه وقوله وعمله ، وقد تمتزج الطينتان فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ، ولعل هذا شأن الكثير من الناس ونسأل الله العافية .

ومن الأحاديث الصحيحة المشهورة في هذا الباب قوله ﷺ : « الناس معادن كعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » (١) .

الثمره :

وثمره هذا الذي وضحت - بدلالة الكتاب والسنة الصحيحة - إثبات حقيقة لا مرأ فيها ولا ارتباب ، لأنها من فيض ما لا مرأ فيه ولا ارتياب ، تلك هي « ارتباط الخصائص والطباع بأصل الخلقة البشرية ، وطبيعة الجبله الإنسانية » فكل مخلوق إنما تقررت فيه خصائصه يوم نشأته ، وتحددت طباعه حين خلقتة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَكُلٌّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ (١) كما أشار إليه المفسرون .

طبيعة المرأة :

وإذا تقررت تلك الدقيقة ، وتبينت منها الحقيقة ، فلم يبق إلا البناء عليها ، والرجوع في العضلات إليها

(١) الإسراء ١٢ .

وإذا كنا بسبيل تقرير « طبيعة المرأة » فأقول
والله المستعان :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۖ ﴾ . (١)

وقوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾
يعني آدم عليه السلام .

وقوله سبحانه : « وخلق منها زوجها » أي حواء
أما .

وفي الآية دلالات متعددة :

فأولاً : دلت الآية على أن الرجل أصل للمرأة والمرأة
فرع عن الرجل .

وثانيًا : يعني ذلك أن الرجل متبوع وزوجه له تابعة .
 وثالثًا : المتبوع له درجة القوامة ، والتابع عليه لزوم
 الطاعة إلا في معصية .

قال تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى
 النِّسَاءِ﴾ . (١)

وقال رسول الله ﷺ :

« خير نساءكم التي إذا نظر إليها زوجها سرقه ،
 وإن أمرها أطاعته » . رواه النسائي ونص العراقي في
 الأحياء على صحته فقال : النسائي من حديث أبي
 هريرة نحوه بسند صحيح وقال - أي النسائي - ولا
 تخالفه في نفسها وما لها .

ورابعًا : الحكمة في خلق حواء من آدم استصحاب
 الرغبة عند كليهما للعودة إلى الاتحاد إذ لا غنى لأحدهما
 عن الآخر ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ

وَأَنْتُمْ لِبَاسٍ لَّهُنَّ ^(١) وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا
زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ
مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ ^(٢) .

وخامساً : يختلف حب الرجل للمرأة عن حبها له
لانفصالها عنه وكونه لها أصلاً وكونها فرعاً منه ،
فحبها له كحنين الغريب إلى وطنه ، وهو يحن إليها
حنين الكل إلى جزئه الذي انفصل عنه ، لذلك هو
يحس بالنقص لفقدتها ، وهي تحس بالضياع لبعده
كضياع الغريب في غربته .

وسادساً : لم يرد أن حواء خلقت من نصف زوجها إذ
لو حدث ذلك لكانت صورة ثانية عنه ولأشبهته في
كل شيء ولكن الحكمة الإلهية اقتضت خلقها من ضلعه
كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

(١) البقرة ١٨٧ .

(٢) الروم ٢١ .

وسابعا : لما كان المخلوق يكتسب طبيعته وخصائصه من أصل خلقته كما بينت سابقاً ، لذلك فقد اكتسبت المرأة « طبيعة الميل مع الأهواء واعوجاج السلوك » من طبيعة الضلع الذي خلقت منه .

ويدل لذلك قوله ﷺ : « المرأة كالضلع إن قومته كسرته ، فدعه تستمتع به على عوج » رواه البخاري ومسلم . وسأبين ذلك في الفصل القادم إن شاء الله .

الفصل الثاني

المرأة خلقت من ضلع أعوج

انتهيت في الفصل السابق إلى تقرير حقيقة هامة عليها ينبغي إدراك خصائص الأنوثة ، ومعرفة طبيعتها الراسخة . أما تلك الحقيقة ، فهي ارتباط الخصائص والطباع بأصل الخلقة البشرية وطبيعة الجبلّة الإنسانية فكل مخلوق إنما تقررت فيه خصائصه يوم نشأته وتحددت طباعه حين خلّقه ، وقد دلّلتُ على ذلك بآيات وأحاديث صحيحة تفيد ذلك المعنى وقد عبّرتُ من تقرير تلك الحقيقة إلى فهم طبيعة المرأة بالتدبر فيما ورد بشأنها من آيات وأحاديث تشير إلى خصائص معينة تفردت بها المرأة عن الرجل وفي هذا الفصل أُتمُّ إن شاء الله بيان الخِصِّصة السابعة التي ترتبت على خلقها من ضلع آدم عليه السلام فأقول :

● الخاصة السابعة :

● الميل عن الحق إلى الهوى :

« الميل عن الحق إلى الهوى » المعبر عنه بالعوج
 بإخبار صحيح عن الصادق المصدوق عليه السلام ، فقد روى
 البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال :
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استوصوا بالنساء خيراً ، فإن
 المرأة خلقت من ضِلَعٍ ، وإن أعوج ما في الضِّلَعِ
 أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل
 أعوج ، فاستوصوا بالنساء » .

وفي رواية لمسلم : « إن المرأة خلقت من ضِلَعٍ لن
 تستقيم لك على طريقة ، فإن استمتعت بها استمتعت
 بها وفيها عِوَجٌ ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها
 طلاقها »

● الخاصة الثامنة :

● الحنو :

« الحنو » فأنحاء الضلع وإن ترتب عليه العوج فإنه يفيد كذلك انحاء المرأة على وليدها وزوجها بالرعاية والعناية وهذا مشاهد .

● الخاصة التاسعة :

● الضعف :

« الضعف » فإن الضلع في ذاته ضعيف يسهل كسره فنشأ عنه بخلق الله ضعف المرأة ، ولذا كان الكثيرون من ذوي الأهواء يشككون في هذه الحقيقة ، لكي يصلوا من ذلك إلى تحقيق مآربهم من إيهام المرأة بأنها في قوة الرجل ، وإذا كانت كذلك فلتزاحمه في ميدانه فإنها لذلك أهل .

● دليل على خاصة الضعف :

أما دليلي على خاصة الضعف عند المرأة فزيادة على ما هو مشاهد وواضح لدى كل بصير أذكر قوله ﷺ « اللهم إني أخرج حق الضعيفين : اليتيم والمرأة » قال النووي : رواه النسائي بإسناد جيد .

وقال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : « ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنما هنّ عوان عندكم » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

قال النووي : قوله ﷺ « عوان » أي : أسيرات (جمع عانية) .

قلت :

وهذا دليل أيضا على ضعفهن ونزولهن عن درجة الرجل في القوة وإلا لما وصفن بالأسر لدخولهن تحت حكم الزوج .

● الخاصة العاشرة :

١ - نقصان العقل ، والدين :

ويدل لذلك الحديث الصحيح المشهور : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن » قالت امرأة منهن وما نقصان عقلنا وديننا ؟ قال ﷺ :

« أليس شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد ؟ فذلك نقصان العقل وأليست المرأة إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ فذلك نقصان الدين » جزء من حديث اتفق عليه البخاري ومسلم .

قلت :

وقوله ﷺ « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن » يعني أن المرأة على الرغم من أنها ناقصة العقل والدين فإنها تغلب ذا اللب من

الرجال أي صاحب العقل الراجح لما لها عليه من سلطان الفتنة والجمال ، ويؤيد ذلك قوله ﷺ : « ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء » متفق عليه .

ولعل خلق المرأة من مكان قريب من قلب الرجل وهو الضلع جعله - بإذن الله - متعلقًا بها لا يصبر على فتنها إلا من رحم ربك ، قال يوسف عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
وَأَلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ
الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

• سر تحريم النظرة والمجالسة .. والخلو قال حكيم :

قال حكيم :

« إذا استعصى إنسان على الشيطان أتاه من قبل

النساء » .

والمشاهدة والتجريب يؤيدان ذلك ، وهذه الحقيقة هي سر تحريم النظرة والمجالسة والخلوة سداً للذريعة وحفاظاً على طهارة القلوب المؤمنة .

قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (النور : ٣٠) .

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. ﴾ (النور : ٣١) .

● ماهية النقصان المذكور :

حين سألت امرأة رسول الله ﷺ « ما نقصان عقلنا وديننا » أجاب ببعض لوازم النقص ومظاهره تقريباً لعقول النساء اللاتي كن يحضرن مجلس تعليمه ﷺ ، وكان الدرس خاصاً بالنساء كما رغبن بذلك إلى

رسول الله ﷺ، ونستطيع بإذن الله أن نفهم من الحديث شيئاً كثيراً وأشير إلى أهم ما فيه :

أ - أن الجهر بالحق له الأولوية المطلقة ، ولا ينبغي أن نكتم علماً علمناه خشية جرح شعور السامعين ، وحيث يمكن التعريض ويفهم السامع نعرض وإلا فالتصريح بالحق وعلى المؤمن أن يرضى بحكم الله .

ب - أن التزلف إلى المرأة ومراعاة شعورها ببيان ما ورد بشأنها من حقوق والاجتهاد في إعلاء منزلتها ورفع مكانتها ، هذا أمر غير مشروع إلا إذا كان مقدمة لقرع سمعها بالحق الذي جاء من عند الله .

ج - أن النسوة اللاتي سمعن تلك الحقيقة من رسول الله ﷺ لم يزدن أن سألن عن ماهية ذلك النقص الذي ابتلين به ، ولما سمعن الإجابة سكتن وسلمن ولم تحتج واحدة منهن على ذلك وتساءل : لم فضل الرجال

على النساء وبأي حق كان ذلك ، وهذا شأن المؤمنات
الصادقات رضوان الله عليهن .

• الخاصة الحادية عشرة :

• التقلب

« التقلب » فالمرأة أبداً لا تثبت على حال ، ولا
تستطيع أن تضع لنفسك قاعدة تلتزم بها لترضيها ، فما
يسرها منك اليوم قد يفضيها غداً والعكس أيضاً
صحيح وهذا بعض معنى قوله ﷺ فيما سبق من
الحديث « لا تستقيم لك على طريقة » وهو أيضاً من
لوازم العوج المتأصل في فطرتها :

قال أحد الحكماء : « قد تقدم لزوجك زهرة
فتشكرك عليها وتعدّها منة ، وربما قدمت لها الدنيا
بأسرها فعتبت عليك ، لمّ لم تلفها لها بغلاف جميل ؟ » .

● الخاصة الثانية عشرة :

● الانفعال :

« الانفعال » هو سرعة الاستجابة لمؤثرات الحزن والفرح والرضا والغضب بحيث يغلب ذلك على نفسها فتتخذ مسالك غير حكيمة ، فثلاً :

كثيراً ما يحدث أن يقصر الرجل في حق من حقوق زوجته ، فيغضبها ذلك غضباً يخرجها عن حدها ، فتنسى حقه عليها وما سبق منه لها ، فتصيح في وجهه : « والله ما رأيت منك خيراً قط » .

هذا من الجحود الذي أشار إليه ﷺ بقوله : « وتكفرن العشير » وذكر أنه من أسباب دخول النساء النار والعياذ بالله ، فلتحذر المرأة الصالحة ذلك فإنه من المهلكات « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » .

● الخاصة الثالثة عشرة :

● الصبر وقوة الاحتمال :

« الصبر وقوة الاحتمال » وهذا مشاهد لدى من لم تفسدهن مظاهر الحضارة وتفقدن خصائص أنوثتهن فالأصل في الأنثى صبرها على تكاليف الحمل والولادة وعشرة الزوج المتسلط واحتمال البقاء في البيت مدة طويلة قد تطول سنوات ، وحبس نفسها دون زواج بعد وفاة أو طلاق من أجل أبنائها اليتامى . كل هذه الفضائل مركوزة في أصل فطرة المرأة غير أن الحضارة والثقافة المسمومة أفسدتها ، ويشهد لذلك سيرة أمهاتنا من الأجيال السابقة حين كن على الفطرة الخالصة لا تشوبها شائبة - قال رسول الله ﷺ :

« إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها »
رواه ابن حبان .

وقال : « حاملات والدات رحيمات بأولادهن لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخل مصلياتهن الجنة » رواه ابن ماجه والحاكم وصححه .

● الخاصة الرابعة عشرة :

● شغلن الذهب والزعفران :

التعلق بالتفاهات بحيث يشغلن ذلك عن أداء حق ويدل لذلك قوله ﷺ : « اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء فقلت أين النساء ؟ قال شغلن الأحمران : الذهب والزعفران » رواه أحمد بسند ضعيف والمعنى شغلتهن الحلي والثياب المصبغة .

قلت :

وقد ورد قريباً من معناه حديث صحيح اتفق عليه البخاري ومسلم بلفظ « اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء ، فقلن : لم يارسول الله ؟ قال : يكثرن اللعن ويكفرن العشير » .

ولعل قوله ﷺ « شغلهن الأحمران » ينطبق في زماننا هذا على جنون الموضة والإسراف في الزينة المشاهد عند عامة النساء إلا من رحم ربك .

● الخاصة الخامسة عشرة :

● الإيثار :

« الإيثار » ويدل لذلك ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : « جاءني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منها تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها ، فاستطعمتها ابنتها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال : « إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار » رواه مسلم .

● الخاصة السادسة عشرة :

● ضيق الشعور :

« ضيق الشعور » أي ضيق المنافذ المؤدية إلى العقل نتيجة لغلبة هوى معين على القلب ، كما هو الحال مع زوجة العزيز في محاولة فتنها يوسف عليه السلام فإنها رغم افتضاحها أمام زوجها واستعصام يوسف عليه السلام فإنها استمرت في محاولاتها للحصول عليه ، وصرحت بعزمها أمام النسوة ولم تحجل وذلك لغلبة الهوى على قلبها وسده المنافذ إلى العقل ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

وليس إلى هذا المستوى يصل النساء فالعفة في صالحاتهن ظاهرة لا تنكر ، غير أن أصل امتناع المرأة عن الاقتناع وعدم استجابتها للحجة والمنطق في مقابلة

رغباتها وأهوائها هذا حق مشاهد وعكسه قليل ، ولا
يبعد أن تجد في الرجال من حوى كافة الرذائل ، وفي
النساء من جمعت أمهات الفضائل ، فذلك أيضاً مشاهد
غير أنه قليل ، كما قال رسول الله ﷺ « كل من
الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع ، آسية
امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت
خويلد ، وفاطمة بنت محمد » ﷺ رضي الله عنهن
جميعاً .

وليس من لوازم تلك الخصائص أن تجتمع في كل
النساء ولكن بعضها حتم لازم لا مفر منه والبعض
الآخر قد يوجد كله أو بعضه وبدرجات متفاوتة
بمقتضى مشيئة الله المطلقة وحكمته البالغة .

وأسأل الله أن يهديني لما خُتِفَ فيه من الحق بإذنه
إنه يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

هل نحطم شخصية المرأة بالتسلط عليها

قالوا :

جعلت المرأة مجرد تابع للرجل ليس غير

وقولك إنه الأصل وهي عنه الفرع

وما رتبته على تلك المقدمات من نتائج وآثار

كل ذلك جعل منها مخلوقاً تافهاً لا يحس بوجوده

ولا يعترف بمسؤوليته ، وأنت بذلك تحطم شخصيتها ،

وتعطي المتسلطين عليها مزيداً من الحق والشرعية .

ولئن سلمنا جدلاً بما قلت : فليس هذا طريق

إصلاح المرأة .

قلت :

والاعتراض الوارد من وجهين :

● الوجه الأول :

جعل المرأة في الدرجة الثانية ، وإنزالها عن مرتبة الكمال .

● الوجه الثاني :

أنه إن صح ما قلت فنشره لا يليق حتى لا نمكّن للرجل من المرأة زيادة عما هو عليه من تسلط واضح وحكم جائر .

وفي الرد على الوجه الأول أقول والله المستعان :

أما قولك جعلت المرأة تابعة وأنزلتها عن مرتبة الكمال فما ذلك بجعلي ولا ينبغي لي ، وقد سبق أن قلت إنني أستند في كل ما كتبتُ إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فمن وجد غير ذلك فليرشدني وجزاه الله خيراً .

وإذا تبين أن ما قررتَه هو حكم الله ورسوله ، فلا
جَرمَ أنه لا خيارَ لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله
أمرًا ، وصدق الله العظيم .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا
شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا
قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . (١)

فإن قلت :

« دعواك بأن ذلك حكم الله ورسوله مردودة ،
وقضيتك غير مسلمة إذ لا دليل عليها » ! .

أقول :

أحسنْتَ في طلب الدليل ، فأحسن الاستماع إليه
والنظر فيه ، والله يهديني وإياك إلى سواء السبيل .

• إزالة وَهْم :

وقبل أن أشرع في المقصود أحب أن أزيل وهماً لعله من الأسباب المانعة من التسليم ، ذلك أن أفضلية النوع لا تستلزم أفضلية الفرد عند الله ، فكم من النساء من تزن عند الله آلافاً من الرجال ، وكم من الرجال من لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وما يضير المرأة كونها في عصمة الرجل وتحت سلطانه ما دامت هي وإياه عبيدين من عباد الله خاضعين لحكمه عاملين بأمره ؟

وما يفيد الرجل سلطانه على المرأة إذا طغى وتجبر ولقي الله بجهالة أهله وتقصيره في حقوقها ؟

وقال ابن جرير الطبراني في تفسير قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ
لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا

اَكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١﴾

قال رحمه الله : « وذكر أن ذلك نزل في نساء
تمنين منازل الرجال وأن يكون لهن ما لهن ، فنهى الله
عباده عن الأمانى الباطلة وأمرهم أن يسألوه من فضله
إذ كانت الأمانى تورث أهلها الحسد والبغى بغير
الحق » .

• ثم روى أن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت :
يا رسول الله تغزو الرجال ولا تغزو وإنما لنا نصف
الميراث ، فنزلت : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ
بَعْضَ لِّلرِّجَالِ نَصِيبًا مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا
اَكْتَسَبْنَ ﴾ ونزلت : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ .

• ثم قال رحمه الله في تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ يعني ذلك جل ثناؤه : إن الله كان بما يصلح عباده فيما قسم لهم من خير ، ورفع بعضهم فوق بعض في الدين والدنيا ، وبغير ذلك من قضائه وأحكامه فيهم « عليما » يقول : ذا علم فلا تتموا غير الذي قضى لكم ، ولكن عليكم بطاعته والتسليم بأمره ، والرضا بقضائه ، ومسألته من فضله .

• ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ ﴾ .

وإذا تمهد هذا فلا شرع في الاستدلال والله المستعان :

الدليل الأول : قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَىٰهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ^(١)

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « إني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين لي » !
تفسير ابن كثير .

قلت : وهذا بعض ما يجب لهن وليس كل ما يجب وإنا خصه ابن عباس بالذكر لكونه مما يهمل عادة والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله « أي في الفضيلة والخلق والمنزلة وطاعة الأمر والإنفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة » . .

● وهذه المعاني قال علماء التفسير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، والمعروف عن ابن كثير أنه سلفي المذهب ، واعتماده في تفسيره على ما صح من أقوال الرسول ﷺ وصحابته والتابعين ، ولا يتدع رأياً من عند نفسه ، وقد ذهب بعض خيار الناس إلى

أن المراد بالدرجة المذكورة تفرد الرجل بحق إرجاع المرأة المطلقة في عدتها ، ويقول بأن السياق يدل على ذلك ، غير أنني لا أعلم أحداً من السلف قال بمثل قوله رحمه الله ، فالحجة عليه بما أوردنا من كلام ابن كثير وما سأورده إن شاء الله .

• الدليل الثاني : ﴿ الرجال قَوْمُونَ عَلَى النساء ﴾ .

قال تعالى : ﴿ الرَّجَالُ قَوْمُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ . (١)

روى ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال « الرجال قوامون على النساء » يعني أمراء ، عليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته ، وطاعته : أن تكون محسنة إلى

أهله ، حافظة لماله ، وفضله عليها بنفقتة وسعيه .

وبعد أن استوفى ابن جرير أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين قال رحمه الله : « فتأويل الكلام إذن : قوامون على نسائهم بتفضيل الله إياهم عليهن ، ويإنفاقهم عليهن من أموالهم » .

• مشاركة المرأة في النفقة والسيادة ؟

فإن قلت :

فاليوم كثرة من النساء عاملات ، وهن يشاركن في النفقة التي جعلها الله من أسباب قوامه الرجل وسيادته فإذا تقول ؟

قلت :

جوابك من وجهين :

• الأول : أن النفقة لم تكن المبرر الوحيد لسيادة الرجل حتى يفقدها بمشاركة زوجه له فيها .

• والثاني : أن عمل المرأة بدعة سيئة إذا لم تكن معلمة لمثلها أو طيبة أو نحو ذلك مما يتفق وخصائصها .
 وأسوأ من تلك البدعة انتشارها حتى أصبحت هي الأصل وما عداها شاذ مستغرب!! وأفهم أن تعمل المرأة في حالة الضرورة الملحة التي تستلزم عملها واكتسابها ، أما أن تعمل وزوجها في غنى عنها فهذا ما لا تفسر له إلا نقص الرجولة في الرجال ، وضعف الغيرة عندهم حتى طلب ممن أوجب الله عليه نفقتها وحمايتها أن تعمل لتنفق عليه وتحميه فلا غرابة إذا رأينا كثيرًا من النساء يجهرن بالمساواة ولا يعترفن بنزولهن عن درجة الرجل ، فقد أذل الرجل نفسه وأعطى أنثاه حق التسلط ومبرر التطاول ، ولا أقول هذا شأن كل من يعملن ، ولكنه الأصل والقاعدة وما عداه فقليل شاذ ، وعلى كل حال فإن المرأة ليست مُلزَمة شرعًا بالمشاركة في نفقة البيت ولو كان زوجها معسرًا ولا يحل للزوج

أن يأخذ منها قليلاً ولا كثيراً بغير رضاها وعن طيب نفس منها .

﴿ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ ^(١) وما أعطته المرأة لزوجها سواء أكان معسراً أو غير معسر فإما أن يكون هبة أو قرضاً واجب الأداء ، أما إن كان مُعْسِراً فيجوز أن تجعل زكاة مالها له أو تتصدق عليه زيادة على الزكاة .

ولو عرف الرجال والنساء ذلك لتغير الكثير من العرف والتقاليد الجائرة .

فالعرف الجاري في بعض البلاد العربية الإسلامية من وجوب تجهيز بيت الزوجية من الزوجة هذا عرف باطل وسحت ظاهر وقع فيه للأسف حتى من يفقه من المسلمين العاملين لإسلامهم وإسلامهم .

وكذلك سَفِيُّ عامة الشباب للزَّوْج من فتاة عاملة

وكون ذلك شرطاً في رضاه بها والمداولة بينهما قبل الزواج في القدر الذي تستطيع الفتاة المسكينة تقديمه من نفقة وما نوع الأثاث الذي ستحضره بيتها - وليس بيته - كل ذلك من الباطل الذي لا يجوز عمله ولا الرضا به ، وإن جاز لغيرنا ممن يدعون الإسلام فلا محل أبداً لمسلم يدعو إلى الله على بصيرة .

وإذا أبى الرجل أن يعترف برجولته ولوازم قوامته ومبررات سلطاته ، وأبى إلا أن يُحْمَلَ الأثني الضعيفة مسؤولية المشاركة في مشاق الكسب والنفقة فإنه يحق لها أن تضع اللجام في فيه ونسأل الله العافية .

● والدليل الثالث :

دليل التبعية

ما جاء في الكتاب والسنة من خطابات وأوامر ونواه تعم الرجال والنساء على السواء بينما الصيغة فيها

تخص الذكور وحدهم فدل ذلك على دخول النساء في الخطاب بالتبعية وليس بالأصالة ؟

ومثال ذلك كثير غير أني أكتفي ببعض الآيات قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ^(١)
ومعلوم أن المؤمنات أيضاً هذا شأنهن وشملهن لفظ المؤمنين بالتبع .

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ^(٢) والبشرى للمؤمنين والمؤمنات .

(١) النور ٥١ .

(٢) البقرة ٢٥ .

وقال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ
وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ (١)
فأفرد سبحانه لحوق المشقة بآدم بينما هي لاحقة به
وبزوجه معه ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلًا
تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا
تَضْحَكُ ﴾ (٢) مع أن هذا الوعد لآدم ، وزوجه دخلت
بالتبع .

وروى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دعا
الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأتته فبات غضبان عليها
لعنتها الملائكة حتى تصبح » متفق عليه .

ولم يرد قط حديث يلزم الرجل بما ألزم الله به
المرأة في هذا المقام ، وبمثل ذلك جاء قوله ﷺ : « إذا
دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على

(١) طه ١١٧ .

(٢) طه ١١٩ .

التنور» يعني الفرن ، رواه الترمذي وقال حديث حسن .

قلت : وفي الحديث دلالة على وجوب إجابة المرأة لزوجها مهما كانت مُنْهَكَةً في شؤون بيتها ولذا كان صومها النافلة لا يجوز إلا بإذن زوجها فدل ذلك على تبعيتها الكاملة له .

وعن أم سلمة رضي الله عنها - وهي إحدى زوجات النبي ﷺ - قالت : قال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » رواه الترمذي وقال حديث حسن .

قلت : والشرط أن يكون الزوج من المؤمنين حتى يكون رضاه عنها أو سخطه عليها على الميزان الشرعي الحق ، وإلا فبعض الأزواج لا يرضى عن زوجته حتى تشاركه حياة اللهو والعبث التي يحياها فثله لا يعتد برضاه ولا بغضبه .

وفي الحديث دلالة على التبعية أيضاً ، فإن دخولها الجنة بعد أداء حقوق ربها متوقف على رضوان زوجها عليها إذا كان مسلماً بينما لا يتوقف دخول الرجل الجنة على رضا زوجه عنه لأن رضاهن وغضبهن على غير ميزان الشرع في الغالب لغلبة الأهواء على قلوبهن إلا ما رحم ربك .

والأصح من كل ما تقدم ما رواه الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » .

يا قوم :

فماذا تحدون أقطع من هذا البرهان ؟
 اللهم اهدنا لما اختلفَ فيه من الحق يا ذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .
 والحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع

وقليل منكن من يفعله

ذكرت أن الاعتراض الوارد على ما قررته من خصائص الأنوثة من وجهين :

• الأول : أن إنزال المرأة عن درجة الرجل وإثبات تبعيتها له وجعلها دونه في المكانة ، هذا إهدار لإنسانيتها ولا دليل عليه ، وقد أجبت عن ذلك في الفصل السابق وأقت الدليل عليه والحمد لله رب العالمين .

• والاعتراض الثاني : أنه مع التسليم بصحة ما ذكرت فليس هو السبيل لتقويم المرأة وإصلاح عوجها .
وللإجابة عن هذا أقول والله المستعان :

• طاعة الجوارح فرع لخضوع القلب واستسلامه وهما أمران ليسا بالشيء اليسير ولا بالأمر الهين ، فليس

أشق على النفس من الخضوع والاستسلام ، ولا أمر من إلزام الجوارح بالعمل على وفق الأوامر والنواهي ، اللهم الا بسياط الترغيب والترهيب ، وأعلى من ذلك مقامًا من أطاع حبًا للمطاع وطلبًا لرضوانه ، والحب لا يكون إلا لصفة في المحبوب أوجبت حبه ، وإلا فلا يكون حب ولا طاعة ، ولكن إكراه للجوارح عليها والقلب في عليائه يأبى الخضوع والتسليم .

● وقد طلب منا رسول الله ﷺ أن يكون حبنا لله ورسوله أعظم من حبنا لأنفسنا ، وذلك لاستحقاق رب العالمين ثم سيد المرسلين تلك المحبة أولاً ، ولأن المحبة إذا بلغت تلك الدرجة طوعت الجوارح للعمل على وفق الأوامر والنواهي دون كلفة ثانياً ، ولأن هذه المحبة علامة على صدق الإيمان والمعرفة حتى جعل العبد هواه تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ ، وهذا ثالثاً .

فإذا أرسل الله إلينا رسولاً وأمرنا بطاعته فلا بد

أن نجزم أن هذا العبد المرسل أهلّ للرسالة وحقيق به
 ألا يقول على الله إلا الحق ، وأن الله اختاره على علم به
 على العالمين ، ومن هذا شأنه ، وتلك صفته ، نجد
 أنفسنا متوجهين الى تصديقه وطاعته ، وقلوبنا معلقة
 بحبه واستماع أمره ، فطرة فطرنا الله عليها ، وجبلة
 جعلها فينا .

* * *

• ولما عرف عمر رضي الله عنه فضل أبي بكر على
 الصحابة رضوان الله عليه وعليهم جميعاً بايعه على
 الخلافة وألزم نفسه بالسمع له والطاعة وقال : « لأن أقدم
 فتضرب عنقي أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو
 بكر » وما ذلك إلا لإدراكه أفضلية الصديق عليه
 واعترافه بذلك ، واستسلامه ورضاه لتخصيص رب
 العالمين لأبي بكر بالفضل ، ومثل ذلك كثير ، فما بالناس

نسخط إذا خص الله الرجل بالفضل على المرأة ، وكانت له عليها القوامه ؟

إذا تمهد هذا أقول وبالله التوفيق :

نحن لو تتبعنا ما خلق الله من شيء ، لرأينا آثار رحمته وآيات حكمته وقدرته بادية ظاهرة ، والله الحجة البالغة .

ومن آيات رحمته سبحانه أنه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وهذا مشاهد ، فما من مخلوق خلقه الله إلا آتاه سبحانه كمال ما خلق من أجله ثم هداه لما خلق له ، وهذا في غير الإنس والجن واضح لخلوهم عن الاختيار الذي خص الله به الجن والإنس ، أما الإنسان فما أكثر ما تمرد على خالقه وخرج عن خصائصه وما خلق له - ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ﴿ وَالْوِاسْتِقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ (١) .

المرأة

• والمرأة حين خلقها الله من ضلع ، وآتاها من الخصائص والصفات ما ذكرت بعضه فيما سبق ، فإنه من مقتضى رحمته سبحانه وحكمته أن نؤمن أنه أعطاها كمال خلقها الذي خلقت له ، وتمام ما به تمام أنوثتها التي اختصت بها ، ولو ظننا غير ذلك لكان من سوء الظن بالله سبحانه وتعالى علواً كبيراً ﴿ ذَلِكْ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

* * *

• وإذا كان من مقتضى سنة الله تعالى في نظام الحياة واستقرار الأمور أن يكون أمير مطاع ومأمورون طائعون وحاكم متبوع ومحكومون تابعون حتى أن رسول الله ﷺ أمر الثلاثة أن يُؤمروا عليهم واحدًا منهم ، إذا كان ذلك كذلك ، فإن تخصيص أحد الجنسين على الآخر بخصائص القوامة والفضل حتى يخضع المفضول للأفضل ، ويطيع الأصغر الأكبر ، حتى لا تجرد المرأة غضاضة في الخضوع ، ولا حرجًا في الطاعة والتسليم ، ولو خلق الله المرأة وجعلها في مرتبة الرجل ، وآتاها من مقومات القوامة ما تناطح به الرجل ، ثم أوجب عليها بعد ذلك طاعته ، وجعلها تحت حكمه ورعايته لكان ذلك عليها شاقًا عسيرًا كما يشق على أحدنا أن يتحكم فيه رئيس له غير كفاء للرئاسة ، ولفسد بذلك النظام ، وانعدام الأمن والسلام ولرأينا من ذلك عجبًا ، ولكن الحكيم الخبير ،

قضى بالحق وحكم بالعدل وأعطى كل شيء خلقه ثم
هدى وأحد الله رب العالمين .

• بناء على الأصل

وإذا تأصلت تلك الحقيقة ، ظهر منها الجواب على
من قال : ليس هذا طريق إصلاح المرأة ، ذلك أن
جهل المرأة بطبيعتها من دواعي كبريائها ، وعدم
اعترافها بأنوثتها من أعظم أسباب شقوقها ، فلا بد من
تعريفها بنفسها ، وإفهامها حقيقتها ، وتعليمها رسالتها
وخصائص أنوثتها لعلها أن تسلم بذلك فتسلم ، أو
تكون جاهلة فتعلم وإذا أراد الله بها خيراً هداها ،
ونفعها بما علمها من أمور دينها ودنياها .

وإني لأعرف كثيرا من النساء الفاضلات ممن
يعترفن بسيادة الرجل عليهن ، وسبقه بالفضل لهن
يسعدن لهذه الأفضلية ، ويسكن لهذه السيادة ، ويجدن
الراحة والطمأنينة في ظل القوامة الحكيمة الرشيدة .

كما أعرف بعض النساء ، ممن جهلن طبيعتهن أو تجاهلنها ، تمردن على أنوثتهن ، واجترأن على أزواجهن وأبين إلا أن تكون القوامه لهن ، وفزن بها بعد صراع أو بغير صراع فجنين ثمار ذلك تعاسة وشقوة ، وياليتها لحقت بهن وحدهن ولكن أصابت تلك التعاسة أزواجهن وأولادهن ومن حولهن ، وفي النهاية تصيب الشقوة أوطانهن وأمتهن ، وصدق رسول الله ﷺ : « لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » وما يبدو من فلاح أمم وكلت أمرها لامرأة ، فما ذلك بفلاح ، وإنما سادوا بضعف من سادوهم لا بقوتهم هم ، وعزوا بذلة من أذلّوهم لا بعزتهم هم ، والحمار يتطاول على الصرصار في غيبة الفرس الكرّار فإذا ظهر كان مجرد ظهوره هزيمة لدعوى غيره من الأدعياء .

● فاصدع بما تؤمر

أما القول بأنه ليس من الحكمة الجهر بذلك للنساء

حتى لا يسخطن على تلك القسمة ، فقول باطل
والدليل على خلافه قائم .

فإنه من الجهل بطبيعة المرأة إطراؤها وإعلاء شأنها
والتجاوز بها عن حدها ، فإن ذلك يبعث غرورها
ويزيدها عتوًا ويفسد فطرتها ، وليس معنى ذلك عدم
اللطف بها والإحسان إليها والصبر عليها والعفو عن
هفواتها فإن ذلك مندوب إليه بل مأمور به ، فقد صح
عنه ﷺ قوله « خيركم خيركم لأهله (يعني لزوجه)
وأنا خيركم لأهلي »

• وإنما المقصود أنه ليس من الرحمة بالمرأة إخفاء
حقيقتها عنها ، فإن ذلك غش لها وخديعة ، فقد كان
أول قول رسول ﷺ لجماعة من النساء حين أراد أن
يعظهن « يامعشر النساء تصدقن واستغفرن الله كثيرًا
فإني رأيتكن أكثر أهل النار ، فقالت امرأة منهن
جذلة - يعني ذكية - ولم يارسول الله ؟ قال : تكثرن

اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن .. » إلى آخر الحديث الذي اتفق عليه البخاري ومسلم .

أفرايت رسول الله ﷺ أشفق على النساء أن تقرر أسماعهن تلك الموعظة القاسية أن ينذرهن ذلك الإنذار الرهيب ، أم أنها حكمة النبوة وأمانة الرسالة ينبغي أن تؤدي ولا يكتم منها شيء ؟

بل .. ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ ﴿ يأيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ .

وقد قال رسول الله ﷺ : « من علم علماً فكتمه أجم بلجام من النار يوم القيامة » .

• ولكن .. ألا تستطيع المرأة الحصول على ثواب ما تميز به الرجل من أعمال كالجهاد مثلاً والاستشهاد ؟

روى ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإن يصيبوا أجروا ، وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ونحن معشر النساء نقوم عليهم ، فأبانا من ذلك ، فقال الرسول ﷺ :

« أبلغني من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه ، يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله » .

فانظر إلى قوله ﷺ « واعترافا بحقه » وإلى قوله « وقليل منكن من يفعله » أفلا يدل ذلك على طبيعة ملتوية ينبغي أن تعرفها كل امرأة في نفسها حتى تكثر من الاستغفار والصدقة لعل الحسنات يذهبن السيئات ؟ ..

أم من الأمانة كتمان ذلك عنها ، وإطراء أنوثتها ،

وخديعتها في حقيقتها ، حتى تلقى الله بجهلها ، ويأثم
بذلك من ملك تعليمها ؟ ..

وما جاء في أمر النساء كله مما يجب تبليغه ولا
عذر في كتابه .

فمن قوله ﷺ :

« اطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء ، يكفرن
العشير ، ولو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك
شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط » رواه
البخاري .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول
الله ﷺ : أي الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ قال :
زوجها ، قالت : فأأي الناس أعظم حقاً على الرجل ؟
قال : أمه « رواه الحاكم .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « حق الزوج على زوجته ألا تمنعه نفسها ولو كان على ظهر قتب - يعني بعير - وألا تصوم يوماً واحداً إلا بإذنه ، إلا لفريضة ، فإن فعلت أثمت ولم يتقبل منها ، وألا تعطي من بيتها إلا بإذنه ، فإن فعلت كان له الأجر وعليها الوزر وألا تخرج من بيته إلا بإذنه ، فإن فعلت لعنها الله وملائكة الغضب حتى تتوب أو ترجع ، وإن كان ظالماً » رواه أبو داود الطيالسي .

وبعد :

فأعجب لمن خالف كيف خالف ؟ ..

وأعجب لمن أراد الإخفاء كيف استباح لنفسه

ذلك ؟

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا
 بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا
 إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(١) .

الفصل الخامس

ضرب من الأمثال

خالق الكون واحد وهو رحمن رحيم فلا جرم
 ظهرت آيات وحدانيته ودلائل قدرته ومظاهر رحمته
 في كل ما خلق سبحانه ومن رحمته أنه نصب لنا آيات
 كونية وجعلها بفضله مما يقرب إلى عقولنا بعض أسرار
 خلقه ، ومن ذلك أنه خلق الشمس وجعلها نوراً
 لأبصارنا وكما أنزل سبحانه من السماء ماء فنبتت بإذن الله
 جنات حسان ثم ما لبثت أن ذوت وصارت هشيماً تذروه
 الرياح فكان هذا مثلاً للحياة الدنيا في سرعة تَصْرُمِهَا
 وزوال بهجتها قال تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلَ
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
 نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (١) .

وكما جعل سبحانه السراب مثلاً لخيبة الكافر حين
يقبل على الله يظن أن له عملاً ينفعه فلا يجد شيئاً
وهو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ
بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ
شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ۝ (١) .

وفي القرآن والسنة من ذلك الكثير تقريباً للعلم
للناس وتوضيحاً لما غمض من الأسرار ، فتأمل تجد
خيراً كثيراً إن شاء الله .

● الأرض والقمر

الأرض والقمر آيتان من آيات الله ، ومن إيماني
بأن الله لرحمته بنا قرب إلينا بعض أسرار خلقه
بطريق الأمثال ، فإني تأملت فوجدت القمر أقرب ما
يكون مثلاً لخصائص الأنوثة ، وإذا صدق ذلك ،

فأرجو أن يكون فيه جلاء لكثير مما غمض علمه ودق فهمه من طبيعة المرأة .

فأقول والله المستعان والهادي إلى الصواب :

● القمر كالمرأة .. هو تابع للأرض وهي تابعة للرجل

القمر تابع للأرض ، لأنه عنها انفصل ، فهي له الأصل وهو لها تبع ..

والمرأة كذلك ، تابعة للرجل ، لأنها منه خلقت ، فهو لها الأصل ، وهي له تبع ..

والقمر يدور حول الأرض ، فهو أسيرها ، سائر في فلكها ، ولو انفصل لاضطرب نظام الكون ..

والمرأة كذلك ، تدور حول الرجل ، فهي أسيرته ، سائرة في فلكه ، ولو تمردت وعنت لاضطرب نظام الحياة ..

ودوران القمر تعبير عن تعلقه وشوقه ورغبته في
العودة إلى الاتحاد بأصله ..

وكذلك الحال عند المرأة ..

والقمر لا يدور إلا حول الأرض ، ودورانه حول
الشمس بالتبع لدوران الأرض حولها ، فليس له
استقلال عن الأرض ، ولا ينبغي له أن يستقل ..

وكذلك المرأة .. ليس لها استقلال عن الرجل ،
وإنما هي تابعة له حيث حل فهي معه كما قال تعالى :
﴿ أَسْكِنُونَهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ ﴾ (١) .

● الأمومة ومقتضياتها هي كل ما تتطلع له
المرأة

الأرض تدور حول الشمس وحول نفسها والقمر
ليس له إلا الدوران حولها بالأصالة وحول الشمس

بالتبع .. وهذا يدل على أن الرجل يعيش لغير ما تعيش له المرأة ، ويتطلع لغير ما تتطلع هي إليه ، فالأمومة ومقتضياتها من توفر الزوج والحماية هي كل ما تتطلع له المرأة وتعيش من أجله ، بينما الرجل يطمح إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير ، والمرأة عنده والولد بعض مما خلق له لا كله ..

● القمر وجهه للأرض ..

والقمر يدور حول الأرض بوجهه ، وظهره مظلم مجهول ..

وهذه إشارة إلى أن المرأة لا ينبغي لها أن تعطي الرجل إلا وجهها ، وهذا هو الوجه الطبيعي في العلاقة بين الزوجين ، وما عداه فشاؤ مستنكر قال تعالى :

﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ . (١)

والقمر إذا اقترب من الأرض ازدادت جاذبيته لها
وإذا ابتعد ضعفت تلك الجاذبية ..

وكذلك المرأة في بعدها وقربها من الرجل .. قال
تعالى حكاية عن يُوسُفَ عليه السلام : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ
عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ . (١) .
والقمر في غالب أحيانه ناقص النور غير مكتمل ،
ويكتمل أيامًا قليلة لعلها ثلاثة من الثلاثين .. وكذلك
النساء ، النقص فيهن أغلب ، وإذا اعتدلتن واكتملتن
فعلى الندور .

والقمر يتخذ شكل الضلع في تقوسه كالمرأة حين
خلقت من الضلع ، وذلك إشارة إلى ما سبق بيانه ..

(١) يوسف ٣٣ .

● دورة القمر ودورة المرأة

ودورة القمر ثمانية وعشرون يوماً ودورة الطمث عند المرأة كذلك ، لا تزيد عند المرأة السوية ولا تنقص ، فإن اضطربت فمرض طارئ ..

والقمر يكتمل نوره في اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من بداية دورته ويظل في أوجه ثلاثة أيام تقريباً تسمى في الشرع - الأيام البيض - وقد حث رسول الله ﷺ على صومها لأنه مظنة الثواب العظيم .

وكذلك المرأة تنضج بويضتها ، وتستعد للحمل في اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من بداية الحيض وتظل في أوج استعدادها ثلاثة أيام تقريباً تقابل الأيام البيض من الشهر القمري .. واستحباب الصوم في الأيام البيض يقابله استحباب ما يناسب تلك الأيام عند المرأة لمن رغب في الذرية .

• خسوف القمر

أمرنا رسول الله ﷺ أن نفرع إلى الصلاة حين يقع الخسوف أو الكسوف ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «نقض المنطق» إن هذا يدل على ارتباط هاتين الحادثتين بنزول قدر من السماء نسأل الله رفعه بالصلاة المسنونة ويستدل بقوله ﷺ : «إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان» .

قلت : والخسوف في حقيقته غشيان الأرض للقمر أي توسط الأرض بين الشمس والقمر ، والغشيان مَظِنَّة حدوث الحمل كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ . (١)

فكما شرعت الصلاة والدعاء فترة غشيان الأرض للقمر شرع الدعاء عند إرادة غشيان الرجل للمرأة ، قال رسول الله ﷺ :

(١) الأعراف ١٨٩ .

« لو أن أحدهم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم
جَنَّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنَّبِ الشَّيْطَانُ مَا رَزَقْتَنَا ، فإن
قدر بينهما في ذلك ولد ، لن يضر ذلك الولد الشَّيْطَانُ
أبداً » . رواه البخاري ومسلم .

● الكسوف .. والمرأة إذا حالت بين الرجل
والحق

أما إذا توسط القمر بين الشمس والأرض - أي حال
القمر دون وصول نور الشمس إلى الأرض - فعند ذلك
تظلم الأرض وهو الكسوف .

وكذلك المرأة إذا حالت بين الرجل ونور الحق أن
يصل إليه وفتنته عن ذلك فإنه يظلم قلبه حتى يتحرر
من فتنتها ، ويزول عنه سحرها ، ويعود للتعرض
لنور الحق والاهتداء بهديه .

والذين يحسون بجمال القمر ، ويلمسون سحره
ويتمتعون بأنسه ، هؤلاء النفر قليلون ، ولعل منهم

الشعراء والفنانين وذوي الأفئدة الحية ، والجامع بينهم حياة الباطن وطهارة القلب وسمو الخلق ، وتلك صفات المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِيلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) .

وكذلك الذين يقدرُونَ المرأة ، ويعترفون بإنسانيتها ، ويصونون كرامتها ، ولا يرونها حيواناً مستذلاً ، أنهم قليل ، لأنهم المؤمنون ، لا أولئك الذين خدعوها بمعسول القول ، واستنزلوها من عليائها بحلو الكلام ، وغرروا بها واشتروا وباعوا ، وجردوها من ثيابها وحيائها وفضائلها باسم الحضارة والمدنية وجعلوها سلعة رخيصة وما أرخصها ، واصطادوا بها المال والجاه والسلطان حين استغلوها في أحط أنواع الدعاية

(١) آل عمران ١٩١ .

والإعلان ، والعجيب أنهم وهم حين يفعلون ذلك بها ،
 ينحنون لها ، ويقبلون يدها ، ويقدمونها في المجالس ،
 ويُجعلونها الأمرة الناهية ، فلست أدري ممن أعجب ،
 وكيف أعجب ولست أدري متى تدرك المرأة من هو
 الإنسان ومن هو الحيوان ، ولعلها لا تدري ولن
 تدري ، فكثيراً ما تعشق جزارها وهي تعلم ، وتسعي
 إلى هلاكها برجليها وهي تفهم ، فهل كثير عليهن أن
 يوصفن بنقصان العقل والدين ، أم ظلم لهن أن يكن
 أكثر أهل النار ؟!

﴿ يَبْنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ
 أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا
 سَوْءَاتِهِمَا ﴾ (١) .

● الشمس

فإن قلت :

قد عرفنا بعض أوجه الشبه بين الأرض والقمر ،
والرجل والمرأة ، فما مقام الشمس في التشبيه ؟
أقول :

إذا صح أن الأرض انفصلت عن الشمس ثم انفصل
القمر عن الأرض ، تكون نسبة الأرض إلى الشمس
كنسبة آدم عليه السلام إلى الأرض التي خلق منها ،
وتكون نسبة القمر إلى الأرض كنسبة حواء إلى آدم
عليهما السلام .

وكما أن الأرض والقمر كليهما يستمدان حياتهما من
الشمس - ولا حياة ولا وجود إلا بالله - كذلك الرجل
والمرأة فإنهما يعيشان بإذن الله مما تنبت الأرض وتعطي
من رزق الله ، ولا بقاء لهما ولا وجود إلا بالله .

فإن قلت :

فهل تزعم أن ما ذكرته قضية مُسَلَّمة ، بحيث يجب اعتقاد صحته ولا يجوز عقد القلب على خلافه ؟

أقول :

أما أصل عقد المقابلة بين الشمس والأرض والقمر وبين الرجل والمرأة فذلك اجتهد مني مستنده وجود أمثلة للتشبيه في القرآن والسنة زيادة في البيان والإيضاح ، ورحم الله من قال :

فالله قد ضرب الأقل لنوره

مثلاً من المشكاة والمصباح

ويعنى بذلك قوله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ . (١)

ولكل إنسان أن يقبل أصل تلك المقابلة التي

عقدتها أو لا يقبل ، إذ لا يلزم وجوب الاعتقاد إلا بالدليل الشرعي الصحيح .

أما صور التشابه والتمثيل التي ذكرتها فيختلف وجوب التسليم بها باختلاف دليل كل صورة فما له دليل شرعي صحيح يجب التسليم به ولا يجوز خلافه كحرمة إتيان المرأة في دبرها لثبوت قوله ﷺ : « من أتى امرأة في دبرها فهو كافر بما أنزل على محمد » رواه الترمذي بسند صحيح .

أما ما كان دليله غير يقيني فأنت بالخيار ، إن اطمأن قلبك إلى الصحة أخذت به وإلا تركت . ، وذلك كعقد المقابلة بين الأيام البيض في الشهر القمري ومقابلها عند المرأة وما رتبت على ذلك من نتائج ، فإن الأيام البيض في الشهر القمري ثابتة شرعاً واستحباب صومها كذلك أما ما فيه شك فهو يقين استعداد المرأة للجمل في اليوم الثاني عشر أو الثالث

عشر من بدء الحيض واستمرار ذلك في الأوج مدة ثلاثة أيام ، فإن دليل هذه المسألة علمي طبي وربما يقع فيه الشك فلا إلزام في اعتقادي صحة أمثال ذلك والله أعلم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفصل السادس

الحب .. ما لنا منه وما علينا

قال ابن تيمية رحمه الله في كتاب العبودية :

« آخر مراتب الحب هو التَّيْمُ ، وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم الصباية ، لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام ، وهو الحب الملازم للقلب ، ثم العشق ، وآخرها التيم ، يقال : تَيَّم الله ، أي عبد الله ، فالتميم : المعبد لمحبوبه . »

قلت :

وكل ذلك يندرج تحت لفظ « الحب » وليس كما يعتقد بعضهم تبعاً لتقسيمات علماء النفس المحدثين أن الحب مرحلة وسط ، دونه الإعجاب وفوقه العشق ، فإن الألفاظ وضعت للدلالة على معانيها عند العرب ، وليس لنا أن نخرج اللفظ عن معناه الموضوع له إلا

بالاصطلاح العرفي أو الشرعي ويبقى المعنى اللغوي ثابتاً لا يتغير .

وإذا أطلق لفظ الحب دل على معناه بحسب القرينة ، فمثلاً إذا قلنا : « يحب الأطفال اللعب » دل ذلك على أن معنى الحب هنا هو التعلق ، يعني أن قلوب الأطفال معلقة باللعب ، وإذا قرأنا قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ علمنا أن المراد بالحب هنا هو أعلى مراتبه هو : التميم ، أي العبودية المطلقة لله ، أو كمال الذل والطاعة له .

● أقسام الحب باعتبار المحبوب

وإذا تقدم بيان أقسام الحب باعتبار درجاته في ذاته فلننظر إلى أقسامه باعتبار غايته وتوجيهاته وهو بهذا الاعتبار ينقسم إلى أربعة أقسام :

١. الأول : حب الله لله .

٢. الثاني : حب الله لغير الله .

٣. الثالث : حب غير الله لله .

٤. الرابع : حب غير الله لغير الله .

● حب الله لله

أما حب الله لله ، فحبه سبحانه حباً خالصاً من أية شائبة من شوائب حظوظ النفس العاجلة والآجلة ، بمعنى أن يحب الله تعالى من حيث إنه مستحق للعبادة والحب لذاته ، حتى لو تصور عدم الجنة والنار لما نقص حبه مقدار ذرة ، وهذه منزلة الملائكة المقربين والأنبياء والصديقين ، ومن هؤلاء كانت رابعة العدوية رضي الله عنها ويدل عليه قولها تناجي ربها :

أحبك حبين ، حب الهوى
وحباً لأنك أهل لذاك

وهؤلاء رضي الله عنهم إنما نالوا تلك المنزلة العالية
وتسبوا ذلك المقام الرفيع باصطفاء الله لهم واختصاصه
إياهم بالفضل والرحمة ، وتطهيره قلوبهم ، وتكملة
فضائلهم ، حتى أنار قلوبهم بمعرفته ، وعمرها ببلائكة
رحمته ، وشرحها بمزيد الإيمان به والإسلام له وصدق
الله العظيم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ
إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) وقال سبحانه
﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴾ ^(٢) فاللهم اجعلنا منهم وامتعنا بعفوك وعافيتك
في الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير .

(١) آل عمران ٣٣ .

(٢) البقرة ١٠٥ .

● حب الله لغير الله

أما من أحب الله لغير الله ، فثال ذلك عامة المؤمنين الذين يعبدون الله ليعطيهم في الدنيا والآخرة وهي درجة محمودة كذلك ، إذ لا غضاظة أن يعبد الله ويحبه لما يغذونا به من النعم وما يصرفه عنا من النقم ، فهو الخوف المرجو ولا حول ولا قوة إلا به ، إلا أنها منزلة على علوها أدنى من تلك التي تقدم شرحها ، وفي كل خير .

● حب غير الله لله

أما حب غير الله لله ، فكمن أحب رسل الله من حيث إنهم هداة إلى الله ، وكمن أحب الصالحين من عباد الله من حيث إنهم عابدون لله ، وكل من أحب غير الله من حيث إنه يقربه إلى الله ، أو لكونه صالحاً من عباد الله ، أو لأنه يعينه على طاعة الله فكل ذلك من باب - الحب لله - وقد توسع الإمام الغزالي رضي الله عنه حتى جعل حب الإنسان لخادمه من حيث أنه

يُفَرِّغُهُ لَطَاعَةِ اللَّهِ مِنْ بَابِ « الْحَبِّ فِي اللَّهِ اللَّهُ » وَمَا
جَاءَ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ ، وَأَبْغَضَ اللَّهَ ، وَأَعْطَى اللَّهَ ، وَمَنَعَ
لِلَّهِ ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ » . رواه أبو داود بسند حسن .

ومما يدخل في باب الحب لله ويثاب المرء عليه أن
يحب الرجل زوجته والمرأة زوجها من حيث إن كلا
منهما عون للآخر على طاعة الله ، ووسيلة للتمتع بنعم
الله ، وسبب في العفة والانصراف عما حرم الله .

● حب غير الله لغير الله

أما حب غير الله لغير الله ، فذلك الحب المذموم ،
وهو المقصود بقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ آتَّخَذَ إِلَهَهُ ،
هُوْلَهُ ﴾ ^(١) فهؤلاء معبودهم هواهم وما يشتهون ، وفي

(١) الجاثية ٢٣ .

صحيح البخاري عن النبي ﷺ : « تعس عبد الدرهم ،
 تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة » فسمى من
 أحب الدرهم والدينار والقطيفة حتى ملكه ذلك الحب
 وجعله ينصرف عن طاعة الله ويفتن به عن دين
 الله ، سماه رسول الله ﷺ عابداً لغير الله .

ومن هذا الباب حب الرجل للمرأة وحب المرأة
 للرجل على غير قانون الشرع .

فإن قلت :

فما مناسبة هذا الباب لما نحن بسبيله من بيان
 خصائص الأنوثة ؟

أقول :

المناسبة من وجهين .

• وجه يتعلق بحب الرجل للمرأة :

• ووجه يتعلق بحب المرأة للرجل .

* * *

وخصائص الأنوثة تتبدى في الوجهين كليهما وبيان ذلك كالآتي :

• أولاً : حب الرجل للمرأة :

وأقصد بالحب هنا معنى قوله تعالى : ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ وهو ما يكون في الرجل والمرأة من ميل كل منهما للآخر بمقتضى الجبلة البشرية حتى سعيًا بإذن الله إلى التلاقي وكان من تلاقيهما الذرية واستمرار النوع ، وكل ذلك يجعله سبحانه ليكون ما أراد ولا يكون إلا ما يريد .

والحب بهذا المعنى .. إما أن يكون محمودًا أو مذمومًا

أما الحمود فهو حب الزوجين كل منها لصاحبه ،
 بحيث يكون ذلك الحب على ميزان الشرع ولا يطغى
 حتى يخرج صاحبه عن حدود الله وإلا صار مذموماً
 ولييان هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه
 الله في كتاب العبودية .

« الرجل إذا تعلق قلبه بالمرأة ولو كانت مباحة له
 يبقى قلبه أسيراً لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد وهو في
 الظاهر سيدها لأنه زوجها أو مالكةا ولكنه في الحقيقة
 هو أسيرها ومملوكها ولا سياً إذا علمت بفقره إليها
 وعشقه لها ، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها فإنها حينئذ
 تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور ،
 الذي لا يستطيع الخلاص منه بل أعظم فإن أمر القلب
 أعظم من استعباد البدن . »

• حرية القلب

إلى أن قال رحمه الله

فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ،
كما أن الغنى غنى النفس قال النبي ﷺ : « ليس الغنى
عن كثرة العرض ، وإنما الغنى غنى النفس » متفق
عليه .

وهذا لَعَمْرُ اللَّهِ إذا كان قد استعبد قلبه صورة
مباحة يعني زوجته فأما من استعبد قلبه صورة محرمة
امرأة أو صبي ، فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه
عذاب ، وهؤلاء عشاق الصور من أعظم الناس عذاباً
وأقلهم ثواباً ، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً
بها مستعبداً لها ، اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما
لا يحصيه إلا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة
الكبرى ، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد
حذراً عليه ممن يفعل ذنباً ثم يثوب منه ، ويزول أثره

من قلبه ، وهؤلاء يشبهون السُّكَّارَى والمجانين كما قيل :

سُكْران : سكر هوى وسكر مدامة

ومتى إفاقة من به سُكران؟!!

وقيل :

قالوا جُنُنْتَ بمن تهوى فقلت لهم

العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهرَ صاحبه

وإنما يصرع المجنون في حين

ثم قال رحمه الله :

« وإن من أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب

عن الله » انتهى بنصه .

• النظرة مفتاح الشر

قلت :

والرجل على قوته ضعيف أمام فتنة النساء ولا يملك لذلك دفعا ، ومن هنا أمره سبحانه بغض البصر فإن النظرة مفتاح الشر قال سبحانه :

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ (١) .

وقال رسول الله ﷺ : « النظرة سهم من سهام إبليس المسمومة من تركها خوفا من الله أبدله الله بها إيمانا يجد حلاوته في قلبه » .

وقد جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ أي في أمر النساء .

وقال رسول الله ﷺ : « اتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء » .

وقال : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » .

وقال : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن » ، يعني على الرغم من نقصانكن فإنكن تغلبن ذا العقل الراجح من الرجال ، وما ذلك إلا بما أتى الله الأنثى من خصائص الفتنة والسحر والجمال حتى لا ينجو من حبائلها إلا من رحمه ربك كما قال سبحانه : ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ وقال سبحانه : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ .

● ثانيًا : حب المرأة للرجل

المرأة على ضعفها أقدر من الرجل على مقاومة الفتنة والإغراء بما آتاها الله من حياء فطري ، وما خصها به من برود نسبي وميل إلى التسامي في العاطفة إلى مستوى الحب والعطف والحنان ، فمیل المرأة إلى إشباع رغبات الجسد أقل منه عند الرجل ، بل أقول : إن المرأة بطبيعتها تنفر أشد النفور من لقاء بينها وبين زوجها خال من العاطفة ومظاهر الود ، وربما يشبعها ويرضيها كلمة حب أو تقدير بينما يحزنها أن ترى زوجها يأتيها كما يأتي الحيوان أنثاه ولا شيء قبل ذلك ولا بعد .

وقد وردت في هذا الباب أحاديث مفيدة ذكرها الإمام الغزالي في كتاب النكاح من الإحياء ج ٢ وكذلك الإمام ابن القيم في كتاب « زاد المعاد » .

• حقيقة غائبة

وهنا حقيقة هامة غائبة ، وجب بيانها ، ومسألة دقيقة يتعين برهانها ، تلك هي أن الحب الحقيقي بين الرجل والمرأة إنما هو حب الزوج لزوجته وحب الزوجة لزوجها إذا كانا على الحق الذي شرعه لهما ربهما ، وتلك حقيقة لا مرء فيها شهد لها الشرع ، وشهد لها الطب ، وشهد لها الواقع بالتجربة .

أما شهادة الشرع فقولہ ﷺ لامرأة صحابية نعي إليها عدد من أقرب الناس إليها استشهدوا مع رسول الله ﷺ فصبرت وقالت إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم نعي إليها زوجها فصرخت . فقال رسول الله ﷺ : « إن زوج المرأة منها بمكان » .

أما شهادة الطب فقد ثبت قريباً ما نص عليه رسول الله ﷺ بوحي من الله حين قال : « من كان

يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُسْق ماءه ولد غيره»
رواه أحمد وأبو داود بسند صحيح .

ويعني بذلك نكاح الحامل قبل أن تضع حملها ،
فقد ثبت مضمون الحديث السابق وهو أن المرأة تمتص
ماء الرجل وتتغذى به ويتغذى به جنينها وإذا كان
ذلك كذلك فإن الزوجة تصبح عن قريب قطعة من
زوجها ، وتبعاً لذلك فإنها تراه في نفسها وتجده في
ذاتها ، وتحس به بين طياتها وكذلك الزوج فإنه يرى
فيها ذاته ، ويجد فيها حقيقته ، ويحس في روحها
روحه ، وهذا هو السر في ازدياد الحب الزوجي توثقاً
كلما تقدم الزوجان في العمر وطالت الحياة . إذ لو
كان الرباط بينهما شباب الجسد وفتنة الشباب لانتهى
كل شيء بقدوم الشيخوخة ، غير أن الأمر أعمق من
ذلك وأكمل والحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه .

أما شهادة الواقع ، فإن واقع كل زوجين مسلمين

يطيعان الله ورسوله في الأوامر والنواهي يشهد بما
 قلت ، ويثبت ما قررت ، ولو كره الفاجرون الذين
 يجعلون من العلاقة الآثمة بين العشاق أسمى علاقة
 ويسخرون من الزواج والزوجية والأزواج .
 ويتخذونهم مضرب الأمثال في التعاسة والأحزان
 وذهاب البهجة والسرور ، وحلول الملل والسامة .

وبعد :

فلا أجد ما أختتم به هذه السلسلة إلا قول رسول
 الله ﷺ : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة »
 (أخرجه مسلم) .

والحمد لله رب العالمين

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	٣
إدراك خصائص الأنوثة	
الفصل الثاني	١٧
المرأة خلقت من ضلع أعوج	
الفصل الثالث	٣٢
هل نخطم شخصية المرأة بالتسلط عليها	
الفصل الرابع	٤٩
وقليل منكن من يفعله	
الفصل الخامس	٦٣
ضرب من الأمثال	
الفصل السادس	٧٩
الحب ... مالنا منه وما علينا	



الكتاب في سطور

إن إدراك المرأة لطبيعتها هو أول الوسائل لكي تعرف خصائصها وتدرّك حقيقتها ، فتضع نفسها موضعها . وما سقطت امرأة إلا حين جهلت طبيعتها ، وأنكرت خصائصها ، وتمردت على أنوثتها . وكذلك فإن إدراك الرجل لطبيعة المرأة هو أول الطرق لمعرفة كيف يسوس الرجل المرأة ، وبم يفسر سلوكها ، وما الذي يصلحها ، وما الذي يفسدها ؛ فالضارب في أرض مجهولة لديه أولى به أن يتيه في مجاهلها ، ويضل في مفاوزها .

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والتعميم

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ القنصرية
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ - ٥٩٢٢٨٢٠ - ٥٩٢٦٤٢

فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف : ٥٩٢٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٢٢٢٠٤ (٢٠٢)

email:info@dar-alsalam.com

www.dar-alsalam.com